# الأنا والآخر والمعرفة

بشاير السليمية

في مقال (المعرفة حصيلة الشراكة بين «الأنا» و«الآخر»)، تحدث عبدالنبي اصطيف عن ضرورة الآخر في التكوين المعرفي للأنا، وعن الشراكة المعرفية على المستوى الفردي والجمعي وما بها من مطبات تلغي تحققها في وقتنا الحالي، والسبل المستقبلية لتحقيقها. ... إن انصهار العداوة بين الأنا والآخر لا تتأتى إلا بشعلة من المعرفة ما دام الإنسان عدوا لما يجهل؛ فحاجة الأنا لآخر وحاجة الآخر لآخر ضرورة ملحة؛ ليعرف الأنا نفسه معرفة متكاملة، ومتبادلة بينه وبين الآخر، شريطة أن تكون فعالة ومجدية، وقد قال عبدالنبي اصطيف في هذا الشأن: "دون الآخر لا يُمكن أن يعرف الإنسان نفسه، حتى إن أجزاء من جسمه كرأسه، ووجهه وتعبيره وغيرها لا يمكن أن يراها دون الاستعانة بالآخر، أو مجموعة من المرايا تقوم مكانه" فالمرايا قد تكون (آخر)"، والحيوان والطبيعة يمكن أن تكون (آخر) أيضا لكنها غير مجدية في تكوين صورة متكاملة للنفس.

وعمدتُ في نهاية الفقرة الأولى أن أقحم الحيوان والطبيعة ضمن منظومة (الآخر غير المجدي)، لنرى ما قدمته لحي بن يقظان في إطار المعرفة المشتركة، فبعد أن عاش "حي" في جزيرة نائية وحيدا لسنين طويلة كان يتواصل مع الحيوانات والطبيعة بوسائل شتى دون أن تثمر سنبلة واحدة في حقل المعرفة (معرفة كل منهما للآخر)، لكن قدوم أبسال لهذه الجزيرة جعل "حي" يشعر بالحاجة لوجود أداة (اللغة) يشرعان بها في تبادل المعرفة والتعاون على إنتاجها، فطفق الأول بتفعيلها بتعليم هذا الأخير اللغة الطبيعية ليتمكن من التواصل معه تواصلا مجديا.

ويقول عبدالنبي: "لعل في صيغة إنسان العربية المشتقة من الأنس ما يُشير -على نحو خفي- إلى هذه الصلة مع الآخر؛ فالصيغة بانتهائها بالألف والنون تحمل علامة التثنية، وإنْ كانت تدل على المفرد"، وهذا ما بحثتُ عنه في المعاجم ولم أجد ما يؤيده، فضلا عن ذلك قد يجر هذا التفسير أمورا؛ فماذا نقول في كلمة "الرحمن"، أتحمل معنى التثنية؟، في حين أنَّ فردية الله من المسلمات.

الشراكة المعرفية بين "الأنا" و"الآخر" لا تقتصر على المستوى الفردي كما أسلفنا، وإنما ثمة مستوى جمعي قامتْ عليه الشراكة المعرفية لا سيما بين الحضارات، وقد ضرب عبدالنبي أمثلة لتأثير حضارة في أخرى ونشأتها ونموها وتطورها، وإسهامها في تشكيل الحقل المعرفي لحضارة أخرى، وإن أنكرتْ هذه الحضارات ذلك، فإنها تبقى "حضارات مولّدة" مدينة لها، فمثلا لا يخفى تأثير الحضارات القديمة العريقة في الحضارات الحديثة، وكذلك الحال في الحضارة العربية الإسلامية التي أسهمتْ فيها شعوب وقبائل في مختلف بقاع العالم القديم، كذلك الحال بالنسبة للحضارة الغربية مدينة في ماضيها القديم وعصورها الوسطى وحاضرها الراهن للحضارات الأخرى لاسيما الشرقية، وإن سعت لإخفاء ذلك.

... إنَّ ظُهور كتب تقرُّ بدين الحضارة الغربية للشرق يؤكّد أن ليس ثمة ثقافة صرفة وأن هنالك شراكة إنسانية غير مباشرة في صناعة وإنتاج المعرفة، ككتب: فالتربيركيرت "الأثر الشرق-أدنوي في الثقافة اليونانية في العصر البدائي"، ومارتن بيرنال "أثينا السوداء: الجذور الأفرو-آسيوية للحضارة الكلاسيكية"، وتشارلز بينجليس "الأساطير اليونانية وبلاد الرافدين: توازيات وتأثير في التراتيل الهومرية وهسيود"... وغيرها من الكتب عرجت على أن الحضارة أيا كانت ومهما كانت في نظر أصحابها متفردة وأصيلة فما هي إلا ناتج كيمياء التفاعل والتلاقح بين الذات والآخر.

... إنَّ المرض العضال الذي عانت منه الشراكة المعرفية على مر الزمن هو (الاحتكار)، وما صحبه من توابع كـ"الأنانية" الذي جَعَل العالم المتقدّم يفيد من الشراكة المعرفية وحده دون غيره، على الرغم من الإسهامات المشتركة من كل أمة وشعب فيها، وقد أعطى عبدالنبي مثالا لذلك بالمشاريع البحثية في مختلف المؤسسات الجامعية والعلمية والبحثية المتقدمة، لاسيما في دول الشمال قائمة على شراكة فعلية بين مختلف الأمم والشعوب؛ فالعنصر البشري في هذه المؤسسات ينتمي أفراده إلى أقطار مختلفة من الشرق والغرب والشمال والجنوب، ولطالما شكت دول العالم الثالث، ودول الجنوب، من هجرة الأدمغة والعقول من ديارها إلى دول العالم الأول، أو دول الشمال، مثلما شكت من احتفاظ هذه الدول بموفديها إلى الدول المتقدمة علميا وتقنياً للدراسة والتأهيل تغويهم بشتى السبل المادية والمعنوية للبقاء فيها والإسهام في تنمية المعرفة في حقول تخصصهم.

ويحضُرني فيما أبعد ممَّا سِيْق -ومنذ أزمنة مضت- تجربة العربيِ عباس بن فرناس للطيران، التي أودت بحياته إثر سقوطه المدوي، ماذا لو لم يجرب عباس الطيران؟ هل كان سيصنع الإخوان رايت طائرة؟ هل ستلوح أصلا فكرة الطيران في أفق عقليهما؟!

إننا لن نستطيع أن نؤسس مؤسسة معرفية اشتراكية عالمية تمحو الاحتكار والأنانية وتعطي الشعوب والأمم حقها كما أخذت الدول المتقدمة حقها ما لم تكن لدينا الثقة المتبادلة القائمة على المصالح المتبادلة، وإن ما علينا فعله بعد أن نعزّز هذه الشراكة ونجعلها "شراكة مباشرة" يُوجزه عبدالنبي في نقاط ثلاث ضمنها في كتابه ("نحن والغرب: من "صدام الحضارات" إلى "الشراكة المعرفية»):

- أن ندعو إلى شراكة معرفية بين منتجي المعرفة. كل أرجاء العالم في الجنوب والشمال معا، وفي الشرق والغرب معا.
- أن ندعو بالمقدار نفسه إلى توظيف حصيلة هذه الشراكة وما تنتجه من معرفة في خدمة الإنسان بصرف النظر عن جنسه ولونه ولغته ودينه وسنه.
- أن نحارب مبدأ احتكار المعرفة تحت أية مظلة يحتمي بها.

bash.19929@gmail.com